أعلام عربية

القعقاع بن عمرو

محمد أمين الميداني



حين نقلب صفحات التاريخ ، نبحث عن اولئك الذين ساهموا بصنع مجدنا وحضارتنا ، وعملوا على نشر تعاليم الدين الحنيف ، يطالعنا وجه فارس عربي ، بملامح صارمة ، ونظرات ثاقبة ، نقرأ عن شجاعته النادرة ، وبطولته الفائقة ، ونعجب كيف اهمل المؤرخون الحديث عنه حتى بدأت الجيوش الاسلامية الفاتحة تنطلق شرقا وغربا ، لتوقد مصابيح الهداية في تلك الأرجاء ، وتحرر أراضيها مما كانت تعانيه من جهل وضلالة وكفر ..

عندها فقط التفت اليه المؤرخون وبداوا يولوه اهتمامهم ، ويتحدثون عن شجاعته وبطولته، ويسردون تفاصيل المعارك التي اشترك بها ، والفتوحات التي ساهم فيها ، فحفظت لنا كتبهم بعضا من تفاصيل حياته ، ولكن ليس بالقدر الذي يرضي فينا حب المعرفة والاستطلاع .

فارسنا هو القعقاع بن عمرو ، من قبيلة تميم ، تميم بن مر ، تلك القبيلة التي قدمت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم في العام التاسع للهجرة بعد فتح مكة ، لتعلن اسلامها ، ويقال بان القعقاع كان ضمن وفد قبيلة تميم تلك التي اتت الرسول الكريم ، وبذلك نرى بان القعقاع تربى في الحضرة النبوية الشريفة ، وصاحب الرسول وتعلم من دروسه العظيمة ، وكان الصحابي الجليل ، الحريص على دينه ، الشديد في الدفاع عنه ، المجاهد لاعلاء رايته .

أخرج ابن حجر العسقلاني في كتابه الاصابة في تمييز الصحابة (جـ ٣ ص ٢٣٠) . مايفيد صحبة القعقاع للرسول ، فقد سال رسول الله صلى الله عليه وسلم القعقاع ذات يوم : ماذا أعددت للجهاد ياقعقاع، فاجابه : طاعة الله ورسوله والخيل ، فاستحسن الرسول الكريم هذا الجواب وقال له : تلك الغاية .

على اننا لاننسى بأن الغموض قد اكتنف ولادة هذا الفارس ، ونشأته الأولى ، وتضاربت الأراء حول حضوره لوفاة الرسول الكريم ، فقد قيل بأن القعقاع شهد وفاة الرسول وانه انطلق ليخبر المهاجرين بأمر تجمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة لمبايعة زعيمهم سعد ابن عبادة كخليفة للمسلمين .

وقد انتهى هذا الخلاف الذي كاد أن يعصف باركان الدولة الاسلامية في اولى عهودها ، باختيار أبي بكر الصديق ، خليفة للمسلمين ، بعد أن رضيته الأنصار والمهاجرين .

وكان عهد الخليفة الأول ، العهد الذي برز فيه القعقاع ، وتوضح دوره ، ولفت انظار المؤرخين اليه .

فأول مابدأ دور القعقاع يتوضح في تاريخ حروبنا ومعاركنا ، بدأ حين وجه الخليفة الأول أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) ، الجيوش لمحاربة اولئك



الذين ارتدوا عن دين الاسلام ، وفرطوا بتعاليمه وأركانه ، واتبعوا قادة مشركين ، ادعوا النبوة وجاهروا بها .

لقد حرص أبو بكر على تثبيت أركان الدولة الاسلامية الفتية ، ولم يكن ليتم له ذلك الا بالقضاء على المرتدين والعودة بهم الى دين الاسلام ، لذلك وجه أبو بكر الجيوش لمحاربتهم ، وبعث بالقعقاع على رأس سرية من المسلمين لتأديب « علقمة بن علاثة » الذي خرج في بني كلاب مرتدا .

وكان علقمة قد أسلم ثم ارتد في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم . ثم خرج بعد فتح الطائف حتى لحق بالشام فلما توفي النبي ، اقبل علقمة مسرعا حتى عسكر في بني كعب . مقدما رجلا ومؤخرا أخرى ، وكان ذلك في السنة الحادية عشرة للهجرة النبوية الشريفة .

وعلم بذلك أبو بكر فبعث له بالقعقاع ، وقال له : ياقعقاع ، سر حتى تغير على علقمة بن علاثة ، لعلك أن تأخذه لي أو تقتله ، واعلم ان شفاء الشق الحوص[1] ، فاصنع ماعندك[2] .

فأغار القعقاع على الماء الذي عليه علقمة، فاستبى امرأته وبناته ونساءه ، وقدم بهم وبعلقمة أسيرا على الخليفة ، ولكن ولد علقمة وزوجه انكروا أنهم جاروا علقمة في ارتداده ! وكان أن عاد علقمة بعد ذلك عن ردته وأسلم فقبل منه الخليفة اسلامه .

كانت مهمة بسيطة تلك التي اضطلع بها القعقاع في حروب الردة ، ولكنها كانت كافية لتدلنا على مبلغ ثقة الخليفة الأول بالقعقاع ، واعتداده عليه ، في تلك الظروف العصيبة التي عانت منها الدولة الاسلامية في اولى عهودها .

وبعد أن توطدت أركان الدولة الاسلامية بالقضاء على المرتدين ، فكر الخليفة الأول بتوجيه الجيوش لفتح العراق ، وكان أن عقد لسيف الله خالد بن الوليد (رضي الله عنه) ــ والذي ابلى بلاء حسنا في حروب الردة ــ لواء فتح العراق .

وكتب له يكلفه بهذه المهمة على أن تكون مدينة الأبلة ــ ثغر الفرس على الخليج ــ وجهته الأولى ، وحدد مدينة الحيرة هدفا له .

على أن أبا بكر أجاز لمن شاء من جيش خالد بالرجوع الى بلدته ، وطلب منه أن لايصحب معه الى العراق كاره للقتال . وفوجىء خالد حين قرأ رسالة الخليفة على جنده ، بالكثير منهم يعودون غير راغبين معه لفتح العراق . فكتب الى الخليفة يعلمه بما جرى طالبا منه أن يمده بجنود بدل الذين انفضوا عنه .

فأرسل أبو بكر الى خالد بالقعقاع بن عمرو ؟! وحين سأله أصحابه مستغربين : أتمد رجلا قد أرفض عنه جنوده برجل ! قال أبو بكر : لايهزم جيش فيه مثل هذا !!![3] .

انها شهادة كبيرة من الخليفة ، وثناء عظيم للقعقاع ، وايجاز بليغ يصف هذا الفارس المقدام .

لقد اشتهر عن أبي بكر ، معرفته بأنساب كل قبيلة ، ومفخر أبطالها ومثالب أفرادها . ولابد من أنه عرف للقعقاع في حياة الجاهلية شجاعته ، وبطولته ، وكان هو أول من كلفه بمهمة بعد ان شرح الله قلب القعقاع للاسلام ، فكان توجهه لقتال « علقمة بن علاثة » وهاهو يمد خالدا به هذه المرة ، وهو على يقين بأن خالدا سيجد فيه السند والمعونة ، وسيكون الجندي الشجاع في جيشه ، والمجاهد الذي لن يهزم جيش انضم الى صفوفه .

كانت أولى معارك المسلمين في أرض العـراق • معركة « ذات السلاسل » ـ نسبة للسلاسل التـي ربط الفرس جنودهم بها قبل بدء المعركة ـ والتـي جرت بين المسلمين والفرس في شهر محرم من السنـة الثانية عشرة للهجرة •

كان يقود جيش الفرس في هذه المعركة القائـد الفارسي « هرمز » ، الذي عرف عنه الخبث والخديعة وكانت منطقة (الكاظمية) على الخليـج هي ساحـة القتال بين الجيشين •

وقد اضمر هرمز لخالد الخديعة ، فاوعز لبعض جنده بأن يتربصوا بخالد وما أن يروه مشغولا بالقتال معه ، حتى يسرعوا فيقتلوه غدرا ، فيفت ذلك في عضد جيش المسلمين ويبدد شملهم •

وخرج « هرمز » من بين صفوف الفرس ونادى لخالد ليخرج لمبارزته ، فخرج خالد ، وتقاتلا وهمـا راجلان ، ثم رميا السيوف وتصارعا ، وحانت الفرصة التي ينتظرها جند هرمز للغدر بخالد • فأسرعوا اليه ليقتلوه ••• ولكن صفوف المسلمين انشقت عن فارس مقدام يسرع والسيف بيده يلحق بخالد ، وقـد رأى جند الفرس يخفون للغـدر بـه وهو مشغول عنهـم بصراعه مع « هرمز » •

كان هذا الفارس المقدام القعقاع ، الذي لم يجد وقتا لتنبيه أصحابه لغدر الفرس ، فأسرع بنفسه لينقذ خالدا ، ووصل اليه قبل أن يتمكن منه جنود «هرمز» • فأثبت القعقـاع وهو لايزال في أول معاركه ، قـوة ملاحظته وسرعة بديهته وحسن تقديره ، فكان أن خف لانقاذ قائده والدفاع عنه ورد كيـد الفرس • ورأى المسلمون صنيع القعقاع ، فعرفوا بأن الوقت قد حان للهجوم ، فاندفعوا نحو الفرس بقوة وشجاعة وسرعان ما التحم الجيشان وتمكن خالد في هذه المعركة من قتل قائد الفرس « هرمز » • لتنتهي المعركة أخيرا بانتصار المسلمين وهزيمة الفرس ، وبدأ من رقتها نجم القعقاع يتلألأ في سماء المعارك ، والفتوح الاسلامية ، مسجلا أروع المفاخر ، وأكبر الانتصارات •

وبعد هذا الانتصار المظفر ، انطلق خالد بجيش المسلمين نحو مدينة (المذار) ، على نهر دجلة ، ليلتقي بجيش فارس آخر كان ملك الفرس « أردشير » ، قد جهزه ووضع على رأسه القائد « قارن » ، لمسانـدة جيش هرمز ، الا أن هزيمـة جيش هرمـز ، جعلـت « قارن » يحط الرحال في المـذار ، بانتظـار جيش المسلمين •

والتقى الجيشان ، وكان النصر حليف المسلمين، وقد أنشد القعقاع بعد هذا الانتصـار ، وكان بـين صفوف المجاهدين :

فنحن وطئنـا بالكواظـم (هرمزا)

وبالثني قرني (قارن) بالجوارف[4]

وتتابعت انتصـارات جيش المسلمين ــ وبـين صفوفه فارسنا القعقاع ــ في أرض العراق ، والحـق بالفرس الهزيمة في معركـة الولجة ، ومعركـة أليس وقد انضم للفرس في هـذه المعركـة عرب النصارى الذين كانوا لايزالون على ولائهـم للفرس ــ ، ثـم انضموا إلى أبناء جلدتهم من العرب •

وقد استخلف خالد القعقاع على مدينة الحيرة ، وانطلق للقضاء على مقاومـة الفرس في بقيـة ارض العـــراق •

وهنا يلعب القعقاع دورا جديدا في تاريخ الدولة الاسلامية ، فهو أمير على مدينة الحيرة ، يحكمها ويدير شؤونها طبقا للشروط التي استسلم عليها أهلها للمسلمين .

ولو لم يكن للقعقاع الامكانيات والصفات التي تؤهله لحكم هذه المدينة الكبيرة من مدن العراق ، فما كان خالد ليستخلفه عليها ، وقد أثبتت الحوادث التي جرت فيما بعد صواب رأي خالد في استخلافه للقعقاع على الحيرة .

على أن كتب التاريخ أغفلت هذه المرة أيضا الحديث عن القعقاع في خلال وجوده في الحيرة، ولعل قصر الفترة التي بقي فيها هناك والتحاقه بجيش خالد في فتوحاته المتتابعة بعد ذلك مايبرر هذا الاغفال .

ووصلت للقعقاع وهو في الحيرة أنباء تجمع الفرس من جديد في الحصيد والخنافس ، فكلف « أعبد بن مذكي » ، و « عروة بن الجعد » ، بأن ينطلقا مع جندهما ليرصدا تحركات الفرس في هاتين المنطقتين ويبقيا على تماس مباشر معهم وقال لهما : ان رأيتما مقدما فأقدما[٥] .

وكلف خالد القعقاع بعد ذلك بمحاربة الفرس في الحصيد ، وقد ارتجز القعقاع بعد انتصاره على الفرس في هذه الموقعة :

ألا أبلغا أسماء أن خليلها
قضى وطرا من روزمهر الأعاجم

غداه صحبنا ، في حصيد جموعهم
بهندية تفري فراخ الجماجم[٦]

واشترك القعقاع بعد ذلك مع جيش المسلمين في قتال الفرس وحامياتهم ، في المصيخ ، والثنى والزميل ، وحارب مع خالد حامية الروم على تخوم الامبراطورية الفارسية . وانتقل بعدها مع جيش خالد من العراق الى الشام وبناء على أوامر الخليفة الأول في تلك المسيرة المحفوفة بالمخاطر التي تجشمها خالد وجنده في سبيل اللحاق باخوانهم في الشام ، الذين بدأوا بمناوئة قوات الروم .

وكان أن نجح خالد وجيشه بالوصول الى أرض الشام ، متجنبين الاصطدام بحاميات الروم في طريقهم، مختصرين مسافات طويلة .

وبدأ خالد وجيشه ـ وفيه القعقاع ـ معاركهم الأولى في أرض الشام ، بالاغارة على قرية «سوى» ، ثم مدينة « أرك » وتم لهم الانتصار على الحاميات الفارسية فيها ، وتمت المصالحة بينه وبين أهل تدمر على دفع الجزية ، وأغار بعدها على « القريتين » ، الى أن وصل الى مدينة البصرى ، ليشترك مع جيش « شرحبيل بن حسنه » ، في فتح هذه المدينة الهامة من مدن الشام.

أما أولى أهم المعارك بين المسلمين والروم في أرض الشام ، فكانت معركة « أجنادين » ، التي جرت في شهر جمادى الأول من السنة الثالثة عشرة للهجرة . وفيها انتصر المسلمون على الروم وشردوا جموعهم ، وقتلوا قائد جيشهم (وردان) ، ومعاونه (القبقلاز).

وكانت هذه المعركة آخر المعارك التي جرت في حياة الخليفة الأول أبو بكر الصديق الذي توفي ودفن بجانب صاحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتسلم الخلافة بعده عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، بناء على عهد كتبه أبو بكر للمسلمين باستخلاف عمر .

وفي خلافة عمر ، جرت المعركة الكبرى بين المسلمين ، معركة اليرموك .

واشترك القعقاع مع جيش المسلمين في هذه المعركة ، وكان هو وعكرمة بن أبي جهل في مجنبتي قلب جيش المسلمين ، وأوعز اليهما خالد ـ قائدجيش المسلمين ـ ببدء القتال بعد أن مضت خمسة أيام على بدء المعركة والمناوشات والمبارزات مستمرة بين المسلمين والفرس ، فأنشب القعقاع القتال وهو يرتجز :

ياليتني ألقاك في الطراد
قبل اعترام الجحفل الوارد
وأنت في حليتك الوارد[٧]

وكان النصر حليف المسلمين في هذه المعركة الحاسمة ، فقد فر قائد جيش الروم (باهان) • وقتل معظم قادتهم ، وسقط الكثير من جندهم في وادي الرقاد ، وقتل أكثرهم قبل أن يلوذ البقية بالفرار •

وساهم القعقاع بعد هذه المعركة ، في فتح مدينة دمشق ، وقد تسور مع خالد وعدي بن حاتم الباب الشرقي لسور مدينة دمشق ، وقضوا على حراس هذا الباب ، ليفتحوه لجند المسلمين الذين كانوا قد رابضوا أمامه •

وأنشد القعقاع بعد فتح مدينة دمشق :

أقمنا على داري سليمان أشهرا
بخالد وماقد حموا بالصوارم

فضنضنها بها الباب العراقي عنوة
فدان لنا مستسلما كل قائم

أقول وقد دارت رحانا بدارهم
أقيموا لهم جز الذرى بالغلاصم

فلما زأدنا في دمشق نحورهم
وتدمر عضوا منها بالأباهم[٨]

أما آخر المعارك التي اشترك فيها القعقاع في أرض الشام ، فكانت معركة فحل ، التي انتهت بانتصار المسلمين وهزيمة الروم •

على أن أكبر المعارك التي اشترك فيها القعقاع بن عمرو ، كانت معركة القادسية •

كتب عمر الخطاب ، الخليفة الثاني للمسلمين ، الى قائد جنده في الشام أبي عبيدة بن الجراح ، يأمره أن يعيد جيش العراق الذي قَدِمَ به خالد بن الوليد بناء على أوامر الخليفة الأول في أولى معارك المسلمين على أرض الشام ، أن يعيده الى العراق لينضم الى جيش المسلمين الذي يستعد لملاقاة الفرس في القادسية • وامتثل أبو عبيده لأوامر الخليفة وجهز الجيش وأمره بالعودة الى أرض العراق •

وكان تعداد الجيش العائد ستة آلاف مجاهد ، وضع أبو عبيدة على رأس هذا الجيش « هاشم بن عتبة ابن أبي وقاص » ، وعلى مقدمته « القعقاع بن عمرو » ، وعلى مجنبتيه « قيس بن هبيره بن يغوث المرادي » ، « والهزهاز بن عمرو العجلي »[٩] •

ولم يتمكن القعقاع من الاشتراك في معركة القادسية في أولى أيامها ، بل وصل الى أرض المعركة في ثاني يوم ـ يوم أغواث ـ •

فما أن أشرقت الشمس ونشرت أشعتها على أرض المعركة في ثاني أيامها حتى استعد الجيشان ـ جيش المسلمين وجيش الفرس ـ للقتال من جديد •

فاليوم الأول انتهى وكلا الجيشين لايزالان في مواقعهما الاولى ، وقد تركز هجوم الفرس يومها على جناح المسلمين الأيسر الذي تمركزت فيه قبيلة (بجيلة)، وكان يقود هجوم الفرس قائد جناح ميمنة جيشهم « هرمزان » وجنده ، يسانده « جالنوس » وجنده ،

وقد أفزع ـ في ذلك اليوم ـ منظر الفيلة التي استخدمها الفرس في هذه المعركة ، خيل المسلمين ، فكانت تفر من أرض المعركة ، ولا يملك الفارس المسلم عنانها ، إلا أن « عاصم بن عمرو » (شقيق القعقاع) ، استطاع مع زملائه قطع الأربطة التي شد بها الفرس الصناديق المحتشدة برماتهم على ظهر الفيلة .

وصلت أولى طلائع جيش العراق والعائد من أرض الشام مع اشراقة شمس ثاني أيام المعركة ، وكان على رأس جند الطلائع القعقاع بن عمرو .

كان تعداد جند المقدمة ألف مقاتل ، قسمهم القعقاع الى عشرات ، وأمرهم أن ينطلقوا بهذا الشكل كلما بلغ عشرة منهم مدى البصر لحق بهم عشرة أخرى وهكذا ...

وكان القعقاع على رأس أول عشرة ، وما أن وصل الى أرض المعركة حتى استبشر جند المسلمين وتشجعوا ، ووقف هو فيهم يبشرهم بمزيد من المدد ويقوي من عزيمتهم ويقول لهم : يا أيها الناس ، إني قد جئتكم في قوم ، والله أن لو كانوا بمكانكم ، ثم أحسوكم حسدوكم حظوتها ، وحاولوا أن يطيروا بها دونكم ، فاصنعوا كما أصنع .

وسرعان مابدأ بعدها القتال ، وخرج القعقاع من بين الصفوف ونادى : من يبارز ؟ فخرج اليه ذو الحاجب ، فقال له القعقاع : من أنت ؟ فأجابه : انا بهمن جاذوية ، فصرخ القعقاع : يالثارات أبي عبيد وسليط وأصحاب الجسر ، واندفع نحو بهمن ، واشتبك معه ، وسرعان ماقتله ، ووقف لينادي من جديد : من يبارز ؟ فخرج له هذه المرة اثنان من فرسان الفرس : البيرزان والبندوان ، فأنضم الى القعقاع « الحارث ابن ظبيان » ، ليكفيه أحد الفارسين .

واشتباك القعقاع مع « البيرزان » ، وضربه ضربة قوية أطاحت برأسه ، وتمكن « الحارث بن ظبيان » ، من قتل « البندوان » أيضا .

ووصلت بقية جند مقدمة جيش العراق الى أرض المعركة ، فازداد استبشار المسلمين ، وقويت عزيمتهم ، ووقف القعقاع يقول لهم : يامعشر المسلمين ، باشروهم بالسيوف ، فانما يحصد الناس بها ، وابتكر القعقاع في هذا اليوم حيلة ذكية ، فقد عمد الى بعض إبل جيش المسلمين فألبسها وجللها بأقمشة مبرقعة وجعل عليها بعض الفرسان ودفع بها الى أرض المعركة ، فكانت بتحركها تثير الفزع في قلوب الفرس ، وتجفل خيولهم ، وأصاب الفرس بذلك ما أصاب المسلمون في أول أيام المعركة .

ولما رأت بقية القبائل أثر حيلة القعقاع ، حذت حذوه فألبست بعض إبلها وجللتها بأقمشة مبرقعة مما جعل خيل الفرس تفر من أرض المعركة ، مثيرة البلبلة والفزع بين الصفوف .

لقد حمل القعقاع في هذا اليوم من أيام المعركة ثلاثين حملة ، كلما لحق به عشرة من أصحابه ، يحمل حملة جديدة وهو يرتجز :

أزعجهم عمدا بها ازعاجا
أطعن طعنا صائبا ثجاجا
أرجو به من جنة أفواجا

وفي كل حملة حملها القعقاع كان يقتل فارسا من فرسان الفرس وكان آخر من قتلهم : بزرجمهر الهمذاني ، وأنشد القعقاع في ذلك :

حبوته جياشة بالنفس
هدارة مثل شعاع الشمس



في يـوم أغواث غليـل الفرس
أنخـس بالقـوم أشـد النخـس
حتى تفيض معشـري ونفسي (١٠)

واستمر القتال في هذا اليوم من أيام المعركـة ، حتى بعد غروب الشمس ، وكان سعد بن أبي وقاص ـ قائد جيش المسلمين في القـادسية ـ يستدل على سير المعركة من أصوات المسلمين التي تعلو مكـبرة ويصله صداها في ظلمة الليل •

وفي ثالث أيام المعركة ـ يوم عماس ـ عمدالقعقاع الى حيلة جديدة يشد بها أزر المسلمين ، ويقوي من معنوياتهم ، ويجدد نشاطهم • فقد أوعز القعقاع لجنده الذين قدموا معه من الشام ، لينطلقوا الى المكـان الذي أتوا منه في ثاني أيام المعركة وأمرهم أن يقضوا ليلتهم هناك وما أن يطلع الصبح حـتى يعودوا الى أرض المعركة ، وكأنهم مدد جديد وصـل من أرض الشام ، ليساعد جند المسلمين في القادسية •••

وقال القعقاع لأصحـابه : اذا طلعت الشمـس ، فاقبلوا مائه مائه ، كلما توارى عنكم مائه ، فليتبعهـا مائه ، فان جاء هاشم فذاك وإلا جددتم للناس رجاء وجـدا(١١) •

وانطلق جند القعقاع تنفيذا لأوامره الى ذلكالمكان وما أن اشرقت الشمس على أرض المعركة ، حـتى لاح في الأفق فرسـان المسلمين يتجهـون الى أرض المعركة ، وكـانوا جند القعقاع ، فكـبر المسلمون في القادسية ، وقد حسبوا بأن بقية جيش هاشم القـادم من أرض الشام قد وصل •

وأمر عاصم بن عمرو (شقيق القعقاع) ، جنده بمثل ما أمر القعقاع جنده ، فكان جند عاصم يفدون الى أرض المعركة ، فيبعث مرآهم في قلوب المسلمين القوة ، ويشد من عزيمتهم •

وما أن عاد جند القعقاع الى أرض المعركة ، حتى وصل جيش هاشم من أرض الشام ، وعلم هاشم بما فعله القعقاع فعمد هو أيضـا الى تقسيم جنـده الى جماعات كل جماعة تضم سبعين رجلا ، وأمرهم أن ينطلقوا الى أرض المعركـة ، ومـا أن رآهم جنـد المسلمين في القادسية ، حتى ازدادوا استبشارا وفرحا، وبدأوا يعدون العدة لملاقاة الفرس •

وقد قدر الطبري في كتابه تاريخ الرسل والملوك ، بأن صنيعة القعقاع في اليومين الثاني والثالث من أيام المعركة ، قد أسهمتفي ترجيح كفة المسلمين، وساعدتهم على انتصارهم •

دفع الفرس بأفيالهم من جديد الى أرض المعركة في هذا اليوم ، بعد أن صنعوا أربطة جديدة ، وربطوا الصناديق عليها ، وملؤها بالجنود، وأحاطوها بالفرسان منعا لتكرار ماحدث في أول أيام المعركة • وبعث سعد الى بعض اسرى الفرس ، الذين أسلموا وانضموا الى جيش المسلمين ، يسألهم عن مقتل الفيلة ، وقال لهم : هل لها مقاتل ، فقالوا له : نعم ، المشافر والعيونلاينتفع بعدهـا •

فأرسل سعد الى القعقاع وشقيقه عاصم وقـال لهما : أكفياني الابيض• يعني أنيقتلا له الفيلالابيض، لان معظم الفيلة تألف هذا الفيل وتسير بازائه دائما •

كما أرسل سعد الى « حمال بن مالك » و «الربيل ابن عمرو » ، وقال لهما : اكفياني الفيـل الأجرب •

وبدأت المعركة ، وانطلق القعقاع وشقيقه عاصم نحو الفيل الأبيض ، وعزما على النيل من عينيه في البدء ، فاختارا رمحين لينين ، وانطلقا نحوه ، يحوط بهما أصحابهما ، ليكفوهما فرسان الفرس الذين يدافعون عن الفيل .

وسنحت الفرصة للقعقاع وشقيقه عاصم ، والفيل الابيض متشاغل بالفرسان الذين يقتتلون من حوله ، فوضعا رمحيهما في وقت واحد في عيني الفيل ، فهاج الفيل وانتفض ، ورمى سائسه من على ظهره ، وأسرع القعقاع بعدها ليستل سيفه ليقطع خرطوم الفيل ، فوقع الفيل على جنبه وسقط الجنود الذين كانوا في الصندوق من على ظهره ، فهجم عليهم أصحاب القعقاع وقتلوهم .

وكان أن ادنى كل من « الربيل بن عمرو » ، و « جمال بن مالك » ، مهمتهما ، ففقأ عين الفيل الأجرب ، وقطعا خرطومه ففر الفيل من أرض المعركة ، وكان في أثناء فراره يصيب جند الفرس ويدوسهم ويبعث الذعر في نفوسهم ، أما الفيل الابيض فقد بقي مطروحا على أرض المعركة ، يناله المسلمون بسيوفهم ورماحهم ، وهو عاجز عن الحركة لايبصر ماحوله ولا يستطيع أن يدفع عنه أحدا .

وما أن بدأت الشمس تغرب ، حتى كانت أرض المعركة خالية من فيلة الفرس ، وأنشد القعقاع في ذلك اليوم :

خصص قومي مضرحي بن يعمر
فلله قومي حين هزموا المواليا

وما خام عنها يوم سارت جموعنا
لأهل قديس يمنعون المواليا[١٣]

فان كنت قاتلت العدو فللته
فاني لألقي في الحروب الدواهيا

فيولا أراها كالبيوت مغيرة
أسمل أعيانا لها ومآقيا[١٣]

واستمر القتال يومها الى بعد غروب الشمس ، وطوال الليل ، وبات سعد قلقا ، يرهف السمع لصوت يصله ، ليطمئنه على سير المعركة ، وكان أن وصله صوت القعقاع أخيراً في النصف الثاني من الليل وهو ينشد :

نحن قتلنا معشرا وزائدا
أربعة وخمسة وواحدا

نحسب فوق اللبد الاساودا
حتى اذا ماتوا دعوت جاهدا

الله ربي ، واحترزت عامدا[١٤]

وفي آخر أيام المعركة ـ يوم القادسية ـ خاطب القعقاع اصحابه وقد قدر بأن الساعات الحاسمة في المعركة قد أزفت ، فقال لهم يشد من أزرهم ويبعث فيهم الهمة والنشاط :

إن الدبرة بعد ساعة لمن بدأ القوم ، فاصبروا ساعة ، واحملوا ، فان النصر مع الصبر[١٥] .

وعزم القعقاع على الوصول الى رستم في معسكره ، فجمع اليه بعض فرسانه ، وشنوا هجوما قويا باتجاه معسكر رستم ، ـ قائد جيش الفرس ـ والسرير الذي يجلس عليه ، ولم يمض وقت طويل حتى استطاع القعقاع وفرسانه شق طريقهم من بين صفوف الفرس ، واقتربوا من معسكر « رستم » . ورأت بقية القبائل مافعله القعقاع وفرسانه ، فتنادوا فيما بينهم ، وحملوا دفعة واحدة على الفرس . وما أن توسطت الشمس

كبد السماء حتى تراجع جناح الفرس الأيمن الـذي يقوده القائد « هرمزان » ، تحت ضغط هجوم جند المسلمين واندفاعهم ، كما تراجع جناح الفرس الأيسر الذي يقوده القائد « البيرزان » والقعقـاع وفرسان المسلمين يزدادون اقترابا من معسكر رستم القائم في قلب الجيش الفارسي •

واتنهت المعركة أخيرا بمقتل قائد الفرس «رستم»، وهزيمة جنده ومقتل الكثيرين منهم •

وكانت هناك مهمـة أخرى تنتظر القعقاع بعـد انتهاء المعركة وانتصار المسلمين ، فقد أوكل سعد الى القعقاع مهمة مطاردة فلول جيش الفرس المهزوم ، وقد صحب القعقاع شقيقه عاصم في هذه المهمة • وهكذا ساهم القعقاع بالنصيب الأكبر في تلك المعركة ، ونجح فيما ابتكره من حيل في شد عزيمة المسلمين وتشجيعهم، ودب الذعر والخوف في قلوب جند الفرس ، كما قضى مع شقيقه عاصم على أكبر فيـلة الفرس ، وأعظمهـا (الفيل الابيض) ، وفي ذلك مامكن المسلمين من الثبات في أرض المعركة والقضاء على مشاة الفرس •

حقا ، كانت معركة القادسية ذروة أمجاد القعقاع ومفاخره وبطولته •

وشارك القعقاع بعد هذه المعركة بحصار مدينـة (بهر سير)[١٦] ، الذي انتهى بفرار الفرس منها عبر نهر دجلة ، الى الضفة الشرقية الى (المدائن) ، ليدخلها المسلمون ويجدوها خالية من أهلها حتى السفن الـتي كانت تستخدم لعبور نهر دجلة ، استخدمهـا الفرس كلها وعبروا عليها ، ولم يبقوا في (بهر سير) أي منها •

لقد أشرف المسلمون من هذه المدينة على نهر دجلة وعلى المدائن القائمة في الضفة الشرقية فلاح لهم قصر الاكاسرة في المدائن والذي كان يدعى الابيض ، فنادى ضرار بن الخطاب وقد رأى ذلك القصر على الضفـة الشرقية لنهر دجلة : الله أكبر ! أبيض كسرى ، هـذا ما وعد الله ورسوله[١٧] •

عبر المسلمون نهر دجلة الى الضفة الشرقية ، نحو المدائن ، وفي أثنـاء هذا العبور سقط أحـد فرسان المسلمين ويدعى « غرقدة » من على ظهر فرس له شقراء فرآه القعقاع ، الذي عـبر مع جنـد المسلمين النهر باتجاه المدائن ، والذي يبدو أنه كان قريبا منه ، فهب لنجدته بكل المروءة والشهامة والنجدة التي عرفت عنه ، وأخذ بيده وسحبه حتى نجح كلاهما في عبور النهر ، فقال البارقي أحد فرسان المسلمين ، وقد رأى نجدة القعقاع لأحد زملائه : أعجز الأخوات أن يلدن مثلك ياقعقـاع[١٨] •

ونجح المسلمون في عبور النهر، واصطدموا بالفرس الذين تجمعوا في الضفة الشرقية لوقف تقدم المسلمين، واستطاع المسلمون التغلب على حامية الفرس ليتابعوا طريقهم نحـو قصر كسرى ، ليدخلوه بعدهـا وقد استجابت الحامية المدافعة عنه لدفع الجزية •

وقد شارك القعقاع بعد فتح (المدائن) بمعركة جلولاء ، حيث حفر الفرس حول هذه البلدة خندقـا وتحصنوا خلفه ليمنعوا المسلمين من الوصول اليهم ، وسوروا الخندق بالاخشاب مدببة الرؤوس وجعلوا لهم منفذا عبر الخنـدق لئلا يحصـروا أنفسهم خلف سور الخندق •

وكانت تخرج من خلف الخندق كتيبة للفرس لقتال المسلمين ، وتدخل لتخرج واحدة غيرها لمتابعة القتال، فهال ذلك المسلمون ، ولمح القعقاع على وجوه أصحابه الضيق والانزعاج فقال لهم : أهالتكم هذه ؟ فردوا



عليه : نعم ، نحن مثكلون وهم مريحـون ، والكال يخاف العجز إلا أن يعقب ، فقال لهم القعقاع باثا فيهم الشجاعة والهمة : إنا حاملون عليهم ومجاهدوهم وغير كافين ولا مقلمين حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، فاحملوا عليهم حملة رجل واحد حتى تخالطوهم ، ولا يكذبن أحد منكم[19] .

ونجح القعقاع في أن يجد لـه منفذا نحو الطريق الذي أقامـه الفرس على الخنـدق ، وطلب من أحد أصحابه أن ينادي : يامعشر المسلمين ، هذا أميركم قد دخل خندق القوم وأخذ به فاقبلوا اليه ولا يمنعنكم من بينكم وبينه من دخوله .

وشد ذلك النداء من عزم المسلمين وهم يحسبون أن أميرهم « هاشم بن عتبة » قد نجح في اجتياز الخندق ـ وكان الذي نجح في ذلك فعلا هو القعقـاع وليس هاشم ـ وعليهم أن يهبوا لنجدته ومساندته ، وأفلح القعقاع في بث النشاط والهمة في جند المسلمين بندائه ذاك ، وهو يعرف بأن جند هاشم لن يتركوه وقد عرفوا بأنه قد اجتاز الخندق ولا بد أنهم سيسرعون لنجدته ومعونته ، وكان ذلك فعلا ، تحمل المسلمون حملاتهم الاخيرة على جند الفرس الذين بدأوا يـتراجعون من شدة ضغط المسلمين عليهم ، ووصلوا أخيرا ليجدوا القعقاع وأصحابه قد نجحوا في السيطرة على الطريق الذي أعده الفرس لاجتياز الخندق ، فتعاونوا سوية ودفعوا الفرس للمزيد من التراجع . وانتهت المعركة بانتصار المسلمين وتفرق شمل الفرس .

وأنشد القعقاع بعد انتصار المسلمين على الفرس في جلولاء :

ونحـن قتلنـا في جلولاء اثابـرا
ومهران اذ عـزت عليـه المـذاهب
ويوم جلولاء الوقيعـة افنـت
بنو فارس ، لما حوتها الكتائب[20]

وكانت آخر المعارك التي اشترك بها القعقاع في حياة الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، معركة نهاوند . ففي محاولة أخيرة لوقف زحف المسلمين في أرض فارس ، جمع الملك الفارسي (يزدجرد) ، جيشا فارسيا في نهاوند ، بلغ تعداده مـائة وخمسين ألف فارسي ووضع على رأسه القائد (الفيرزان) وكـان خليفة المسلمين عمر ، قد عزم على قيادة جيش المسلمين بنفسه لمحاربة الفرس في نهـاوند ، إلا أن الصحـابة الكرام أقنعوه بأن يولي أحد غيره قيادة هذا الجيش، وان في بقاءه في المدينة منفعة أكبر للجيش المحـارب ولجموع المسلمين ، واستقر رأي الخليفـة أخيرا على توليه « النعمان بن مقرن المزني » ، قيادة الجيش .

والتقى الجيشان في نهاوند ، كان على مقدمة جيش المسلمين ، « نعيم بن مقرن » ، وعلى جناحيه « حذيفة ابن اليمان ، وسويد بن مقرن » ، وعلى المجرده (الخيل) القعقاع بن عمرو، وعلى الساقة (المؤخرة) مجاشع[21]

واشتبك المسلمون مع الفرس ، واستمر القتـال طـوال اليومين الاولين لبدئه ، وكـلا الجيشين على موقفهمـا ، وفي مواقعهما الاولى ، إلا انـه في اليوم الثالث ، ونتيجة لضغط المسلمين تراجع الفرس ليحتموا بالخنادق التي حفروها حول مدينة نهاويد ، ويختبؤوا خلفهـا .

وتشاور النعمان مع أصحابه حول التمكن من الفرس بعد أن احتموا بالخنادق ، فأشار عليه أحـد أصحابه بأن يكلف ثلة من فرسان المسلمين بمنـاجزة الفرس ومناوشتهم ، ليخرجوهم من خلف خنادقهم ، ومن ثم يتراجع أولئك الفرسان من أمـامهم ، فيظن

الفرس بأن المسلمين قد نكصوا على أعقابهم ، وانهم لاذوا بالفرار ، فيلحق بهم الفرس ، ليفاجؤوا بعد ذلك بالمسلمين وقد استعدوا لهم وخرجوا لقتالهم بالقرب من معسكرهم •

وأعجب النعمان برأي صاحبه ووافق عليه ، وكان أن وقع اختياره على فارسنا القعقاع ، لقيادة فرسان المسلمين الذين سيكلفوا بمناجزة الفرس ومناوشتهم•

وانطلق القعقاع مع ثلة من فرسان المسلمين لتنفيذ المهمة ، وبقي لفترة من الوقت يقاتل الفرس الذين خرجوا له من خلف خنادقهم ، تراجع بعدها مع فرسانه من امامهم ، وظل على تراجعه ، فحسب الفرس أن الفرصة واتتهم ، فلحقوا بالقعقاع وأصحابه الفرسان، بعد أن غادروا امكانهم خلف الخنادق ، ظنا منهم أنهم تمكنوا من جند المسلمين وسرعان ماسيلحقوا بهم الهزيمة ••• وكان ان عاد القعقاع واصحابه الفرسان الى معسكر المسلمين الذين كانوا قد استعدوا للقتال وتجهزوا له ، وأمر النعمان جند المسلمين بألا يغادروا مواقعهم وألا يقاتلوا حتى يأمرهم بذلك فامتثلوا لأوامره،واستتروا عن أعين الفرس •وكبر بعدها النعمان لجند المسلمين ، مؤذنا ببدء القتال ، فاشتبك الجيشان، وكان القتال شديدا والمعركة حامية الوطيس ، والنعمان يحمل راية جيش المسلمين يدافع عنها لتبقى مرفوعة خفاقة ، وغابت الشمس عن أرض المعركة ، وبدأ الليل ينشر رداءه على صفحة السماء ، وكثر عدد القتلى من الفرس ، وملأت جثثهم ودماؤهم أرض المعركة ، حتى باتت الارض لزجة ، ينزلق عليها الجند والخيل من كثرة ماعليها من دماء ، وكان أن انزلق فرس النعمان في أرض المعركة يومها ، وتسبب ذلك في مقتله ، وتناول راية جيش المسلمين من النعمان قبل أن تقع ، « نعيم بن مقرن » ، وأخرج النعمان بعيدا عن أرض المعركة ، وغطي بثوبه ، وكتم مقتله عن جند المسلمين لئلا يؤثر ذلك على معنوياتهم •

وظل القتال محتدما بين المسلمين والفرس حتى أظلمت السماء ، تمكن عندها المسلمون من اختراق صفوف الفرس وتشتيت جموعهم ، فدب الذعر في نفوسهم ، وعمدوا الى الفرار من أرض المعركة ، فلحق بهم المسلمون وتمكنوا من قتل الكثيرين منهم قبل أن يلوذ البقية بالفرار •

وكان ممن نجا وفر من أرض المعركة « الفيرزان » قائد جيش الفرس الذي انطلق نحو (همذان) ، فلحق به « نعيم بن مقرن » وسبقه في ذلك القعقاع ، على أن « الفيرزان » ترك فرسه ، وصعد الجبل القريب من أرض المعركة ، فترك القعقاع فرسه أيضا ، ليلحق به ، وتمكن منه وقتله[٣٢] •

أما في خلافة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) ، كان القعقاع مقيما في الكوفة ، ومن هذه المدينة انطلقت أول بوادر الفتنة والثورة على الخليفة ، وعامله « سعيد ابن العاص » •

وقد استغل أولئك الذين أرادوا عزل سعيد لسياسته المنحرفة في الكوفة ، فرصة غيابه عن الكوفة ، فثاروا مطالبين بعزله وخلع الخليفة عثمان ، فخرج « يزيد بن قيس » ثائرا ودخل مسجد المدينة ، وجلس فيه واجتمع اليه أولئك الذين يتبعونه ، فما كان من القعقاع الذي كان حاضرا يومها إلا أن قام وانقض على يزيد ، وأخذه منكرا عليه مايطالب به من خلع الخليفة ، وعزل سعيد، فقال له يزيد : إنما نستعفي من سعيد • فرد عليه القعقاع بكل حزم وشدة : هذا مالا يعرض لكم فيه ، لاتجلس لهذا ولا يجتمعن إليك ، واطلب حاجتك ، فلعمري لتعطينها[٣٣] •

فالقعقاع لم يرد أن يستغل أولئك الثائرين فرصة غياب سعيد عن الكوفة ، ليعلنوا ثورتهم ، ويبثوا الفرقـة والفتنة بين أهل الكوفة ، سعيد عامل الخليفة عثمان ، وطالما أبقاه عثمان فلا يحق لأحد أن يعزله إلا بأمـر الخليفة ، وعرض القعقاع على يزيد أن ينتظر عودة سعيد ، ولا بد من أن سعيد سيقضي له حاجته إن كان له حاجة ، أما الثورة والفتنة فهذا ما لا يرضاه القعقاع ولا يقبل بـه .

وفي رواية أخرى للطبري : أن يزيد وقد اجتمع إليـه أصحابه قال للقعقـاع : ما سبيلك عليّ وعلى هؤلاء ! فوالله إني لسامع مطيع ، وإني للازم لجماعتي إلا أني استعفي ومن ترى من إمارة سعيد ، فرد عليه القعقاع منكراً ما يطالب به ومستغربه في الوقت نفسه : استعفى الخاصة من أمر رضيته العامة ؟ فقال يزيد : فذلك الى أمير المؤمنين (٢٤) أي أن أمير المؤمنين هو الحكم في هذا الموضوع فإن قبل بعزل سعيد فهو الذي نسعى اليـه .

وكان أن استجاب الخليفة لمطالب أهل الكوفة ، وعزل عامله سعيد ، واستبدله بأبي موسى الأشعري . ولما استمرت الفتنة من جديد ، واتجه الثوار من أهل بعض الأمصار الى المدينة ليناظروا عثمان في سياسته مره ، وليضربوا الحصار حول منزله في المره الثانية ، كتب عثمان الى أهل الامصار ليهبوا لنجدته وكان أن خرج القعقاع من الكوفة لنجدة الخليفة مع من خرج منها ومن بقية الأمصار .

على أن القعقاع تأخر بالوصول الى المدينـة ، وكان أن قتل عثمان . وأريق دمه الطاهر على صفحات القرآن الذي فتحه بين يديه يقرأ فيـه .

وفي خلافة علي بن أبي طالب (كرّم الله وجهه) خرج القعقـاع للانضمام الى جيش علي . بعـد أن تحدث لأصحابه في مسجد الكوفة حين قدم عليها الحسن ابن علي ، ليطلب مناصرة أهل الكوفة لأبيـه ، قال القعقاع يومها : إني لكم ناصح ، وعليكم شفيق ، أحب أن ترشدوا ، ولأقولن لكم قولا هو الحق ، أما ما قال الأمير ــ يقصد الحسن بن علي ــ فهو الأمر لو أن اليـه سبيلاً ، وأما ما قال زيد ــ زيد بن صوحان ، الذي قدم من البصرة ، رسولاً للسيدة عائشة والزبير وطلحة الى أهل الكوفة ، ينصحكم بعدم الانضمام الى علي ،فزيد في الأمر فلا تستنصحوه فانه لاينتزع أحد من الفتنة طعن فيها وجرى اليها ، والقول الذي هـو القول أن لابد من إمارة تنظم الناس وتزع الظالم وتعز المظلوم ، وهذا علي يلي بما ولى ، وقـد أنصف في الدعاء وإنما يدعو الى الاصلاح ، فانفروا وكونوا من هذا الأمر بمرأى وسمع (٢٥) .

وكان القعقاع رسول علي الى السيدة عائشة والزبير وطلحة الذين خرجـوا مطالبين بالثأر لمقتـل عثمان واختيار خليفة للمسلمين .

فقد أرسل علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) القعقاع رسولاً الى البصرة لمقابلـة السيدة عائشة والزبير وطلحة وقال له : الق هذيـن الرجلين يابـن الحنظلية ، فادعهما الى الألفة والجماعة ، وعظم هليهما الفرقة ، وسألة : كيف أنت صانع فيما جاءك منهما مما ليس عندك فيه رصاة مني ؟ فرد عليه القعقاع : نلقاهم بالذي أمرت به ، فاذا جاء منهما أمر ليس عندنا منك فيه رأي اجتهدنا الرأي وكلمناهم على قدر ما نسمع ونرى أنه ينبغي . فأثنى عليه علي قائلاً : أنت لها .

وخرج القعقاع حتى قدم البصرة ، وبدأ بالسيدة عائشة ، فاستئذن ثم دخل عليها وقال لها : أي أمه ،

ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة ؟ قالت : أي بني ، اصلاح بين الناس ، قال القعقاع : فابعثي الى طليحة والزبير حتى تسمعي كلامي وكلامهما ، فبعثت إليهما فجاءا ، فقال لهما القعقاع : إني سألت أم المؤمنين : ما أشخصها وأقدمها هذه البلاد ؟ فقالت اصلاح بين الناس ، فما تقولان أنتما ؟ أمتابعان أم مخالفان ؟ قالا : متابعان ، قال القعقاع : فأخبراني ما وجه هذا الاصلاح ؟ فوالله لئن عرفنا لنصلحن ، ولئن أنكرناه لا نصلح ، قالا : قتلة عثمان رضي الله عنه فإن هذا إن ترك كان تركاً للقرآن ، وإن عمل به كان إحياء للقرآن، فرد عليهما القعقاع : قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة ، وأنتم قبل قتلهم أقرب الى الاستقامة منكم اليوم ، قتلتم ستمائة إلا رجلاً ، فغضب لهم ستة آلاف ، واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم ، وطلبتم ذلك الذي أفلت ــ يعني حرقوص بن زهير ــ فمنعه ستة آلاف وهم على رجل ، فان تركتموه كنتم تاركين لما تقولون ، وإن قاتلتوهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم فالذي حذرتم وقربتم به هذا الامر أعظم مما أراكم تكرهون ، وأنتم أحميتم مضرور بيعة من هذه البلاد ، فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير . فقالت أم المؤمنين : فتقول أنت ماذا ؟ قال القعقاع : أقول هذا الأمر دواؤه التسكين ، وإذا سكن اختلجوا ، فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بثأر هذا الرجل ، وعافية وسلامة لهذه الأمة ، وإن أنتم أبيتم إلا المكابرة هذا الأمر واعتسافه كانت علامة شر ، وذهاب هذا الثأر ، وبعثة الله في هذه الأمة هزاهزها ، فآثروا العافية ترزقوها ، وكونوا مفاتيح ، وايم الله اني لأقول هذا وأدعوكم إليه وإني لخائف الا يتم حتى يأخذ الله عز وجل حاجته من هذه الأمة التي قل متاعها ونزل بها ما نزل ، فإن هذا الأمر الذي حدث أمر ليس يقدر ، وليس كالأمور ، ولا تقتل الرجل ، ولا النفر الرجل ، ولا القبيلة الرجل . فوافقوه الراي وقالوا : نعم ، إذا قد أحسنت وأحببت المقالة ، فارجع فإن قدم علي وهو على مثل رأيك صلح هذا الأمر . فرجع القعقاع إلى علي وأخبره ما كان بينه وبين السيدة عائشة والزبير وطلحة .(٣٦)

ولكن المفاوضات لم تثمر ولم تصل بالفريقين الى النتيجة المرجوة ، فكان أن اقتتلا ، في موقعة اطلق عليها اسم موقعة الجمل ، نسبة الى الجمل الذي كانت تركبه السيدة عائشة ، وقد قاتل أصحابها من حوله بشدة واستبسال ، ولكن المعركة انتهت بمقتل الزبير وطلحة ، وبهزيمة أصحاب السيدة عائشة .

أما آخر ذكر للقعقاع ورد في كتب المؤرخين ، فكان ما أورده بخصوص ما قاله القعقاع عن معركة صفين وقد اشترك مع علي ضد معاوية وأصحابه ، وقد قال : ما رأيت شيئاً أشبه بشيء من قتال القلب يوم الجمل بقتال صفين ، لقد رأيتنا ندافعهم بأسنتنا وتتكىء على أزجتنا ، وهم مثل ذلك حتى لو أن الرجال مشت عليها لأستقلت بهم .(٣٧)

تلك هي حياة القعقاع بن عمرو، فارس بني تميم، تلك حياته بكل شجاعة صاحبها وبطولته وعظمته ...

لقد سطر القعقاع انصع الصفحات ، وخلف أطيب الذكر ، وترك أفضل الأثر ، فهو من أولئك الفرسان الذين سيبقون مفخرة عظيمة لنا ، لأمة العرب والاسلام ، التي ما بخلت على الدنيا بانجاب خير الرسل ، وأعظم الأبطال ، وأشهر القواد .

كان القعقاع من صحابة رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، ومن أولئك الذين اعتمد عليهم الخلفاء الراشدون فكانوا من قوادهم ورسلهم ، وجنودهم الأوفياء .

وقد اكتنف الغموض تاريخ ولادة القعقاع ونشأته الاولى وكذلك اكتنف نهاية حياته ، وتاريخ وفاته !!!

فمعركة صفين هي آخر المعارك التي اشترك فيها القعقاع وكان مع جند علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وانتقل بعد انتهاء هذه المعركة الى (الكوفة) ، ليقيم فيها معتزلاً الأحداث ، ويقضي آخر أيامه وفي خاطره ذكرى المعارك والفتوحات والأمجاد التي سطرها بأحرف مضيئة من شجاعة وبطولة ونبل .

توفي القعقاع في السنة الأربعين للهجرة النبوية الشريفة أي هذه السنة وصل القعقاع الى نهاية المشوار، وانتقلت روحه الى جوار ربها . إذاناً بانتهاء حياة صاحبها .

على أننا وقبل أن نختم هذه المقالة . لابد أن نتحدث عن جانب آخر من جوانب شخصية القعقاع . نتحدث عن القعقاع الشاعر .

لم نعثر للقعقاع على أشعار قبل إسلامه ، وكل ما نسب اليه من شعر كان بعد إسلامه ، وفي معرض الحديث عن معارك المسلمين، وانتصاراتهم وفتوحاتهم.

لقد كان شعر القعقاع مرآة صادقة عكست كل مظاهر البطولة والشجاعة التي ابداها وقومه في المعارك ، وسجلاً دقيقاً لتفاصيل الأحداث وتتابع الانتصارات التي اشترك فيها مع جيش المسلمين في العراق والشام .

لم يترك القعقاع مناسبة لتصوير حبها والمسلمين، وحسن بلائهم ، وعظمة تضحيتهم ، إلا وصورها وتحدث عنها ، كأن انتصار المسلمين لايكتمل إلا برسم هذه الصورة ، وجهادهم لا يوفى حقه إلا بالإشادة بما فعلوه في ساحات القتال .

وعلى الرغم من كثرة ما أنشده القعقاع من أشعار . إلا أننا لم نعثر له على قصائد متكاملة ، وكل ما ذكره المؤرخون ، أبيات شعرية ، ارتجزها في المعارك وعند انتصار المسلمين على أعدائهم .

وقد اقتصر شعر القعقاع على غرض واحد ، غرض تصوير المعارك والاشادة بشجاعة المجاهدين وبطولاتهم . ورثاء من استشهد منهم ، حتى لنستطيع أن نطلق على شعره شعر الفتوح بالدرجة الاولى .

فنحن لا نعثر للقعقاع على شعر الحنين مثلاً ، وقد عزاه بعضهم لوجود جموع كبيرة من أبناء عمومته معه في حرب العراق . ووجود زوجته معه كذلك .

كما لانعثر على شعر يتحدث عن حياته الخاصة ، أو عواطفه الشخصية ، ولعل حياة الجهاد التي أرادها القعقاع لنفسه لم تترك له المجال ليلتفت الى حياته الخاصة وعواطفه الشخصية ...

كان شعر القعقاع ، واضحاً ، بسيطاً صادقاً لا غموض فيه ولا تعقيد ، ينساب بكل هدوء وجزالة ، يؤثر في النفوس ولا يتكلفها أي جهد أوعناء .

وهذه بعض من أشعار القعقاع نسوقها لتكون الصورة متكاملة عن هذا الفارس الشاعر .

فبعد انتصار المسلمين المظفر على جيش الروم في معركة اليرموك ، يقف ينشد مفاخراً بانتصار جيش المسلمين مذكرا بانتصارات هذا الجيش في أرض

العراق . متحدثاً عن تتابع الفتوحات وسقوط معاقل الروم ومدنهم أمام زحف جيش المسلمين ، راسما صورة بطولية لهذا الجيش الذي تتابعت انتصاراته .

وكيف انتهى الحال بجند الروم . وقد لحقت بهم الهزيمة ، وسقطوا في وادي الرقاد (الواقعة) ، ليبقى ذكر هذه الملحمة التاريخية مسطراً أبد الدهر ، فيقول :

ألـم ترنا على اليرموك فزنـا
كمـا فزنـا بأيـام العـراق

فتحنـا قبلهـا بصرى وكانت
محرمة الجناب لدى العناق[٢٨]

وعذراء المدائـن قد فتحنـا
ومرج الصفرين على العتاق[٢٩]

قتلنـا من أقـام لنا وفئنـا
نهابهـم بأسياف رقـاق[٣٠]

قتلنا الروم حتى ما تساوى
علـى اليرموك ثعروق الوراق

فضضنا جمعهم لمـا استمالوا
علـى الواقعة البتر الرقـاق

غداة تهـا فتوافيها نصـاردا
فصاروا إلى أمريمضل بالذواق

وكانت موضوعات الفخر هي أكثر ما أنشد فيها القعقاع الشعر ، كيف لا ، والنصر كان حليفه في كل المعارك التي اشترك بها . واعظم الفتوحات الإسلامية وابعدها أثراً قد أسهم فيها ، فحق له بعد ذلك أن يفخر ببطولته وشجاعته ، وبصنيع قومه .

فبعد انتصار المسلمين في معركة فحل ، ينشـد القعقاع مفاخرا بقومه ، بأجداده ، وآبائه الشجعان ، وكيف أنه سار على خطاهم في طريق المجد والبطولة والشجاعة ، وكيف أن قبيلته تنطلق خلف قائدها في زحف جرار لا آخـر له ...

وفي فحل كانت مأساة الروم ، فقد هزموا شر هزيـمة ، وتشتت جموعهم في ميـاه المستنقعات . والمسلمون ينالون منهم بالسيوف والرماح ، وأنشد يقـول :

كـم مـن أب ورثت فعالـه
جـم المكارم بحـره تيـار

ورث المكارم عـن أبيه وجده
فبنـى بناءهم لـه استبصـار

فبنيت مجـدهم وما هدمتـه
وبنى بعدي أن بقـوا عمـار

مازال منا في الحروب مروس
ملك يغـير وخلفـه جـرار

بطل اللقاء اذا الثغور توكلت
عنـد الثغور مجرب مظفـار

وغداة فحل قد رأوني معلمـا
والخيل تنحط والبلا أطوار[٣٣]

يفدي بلائي عندهـا متكلف
سلس المياسر عـوده خـوار

سلس المياسر ما تسامى ما قطا
عنـد الرهان ممير عيـار[٣٤]

مازالت الخيل العراب تدوسهم
في حوم فحل والهبا موار[٣٥]

حتى رمين سرانهم عن أسرهم
في روغـة ما بعدهـا استمرار

يوم الرداغ بعيد فحل ساعـة
وخز الرمـاح عليهم مـدرار

ولقد برأنا في الرداغ جموعهم
طرا ونحوي تشخص الابصار

وفي الرثاء ، نجد القعقاع يهتز لمقتل أحد أصحابه في معركة القادسية . والمسلمون لا يفعلون شيئاً سوى انتظار تكبيرة سعد ايذاناً ببدء القتال ، فيثور ويغضب ويحمل على الفرس ، عله يشفي غليله ويثأر لصاحبه ، ليرثيه بعد انتهاء المعركة وهو ينشد :

سقى الله يا خوصاء قبر ابن يعمر
اذا ارتحـل السفار لم يترحـل

سقى الله أرضاً حلها قبر خالـد
ذهاب غـواد مدجنات تجلجـل

فأقسمت لاينفـك سيفي يحسهم
فان زحل الأقـوام لم أتزحـل

وفي الوصف ، نلمس مهارة القعقاع في رسم الصورة الواضحة البليغة المعبرة ، فنقرأ شعره ويخيل لنا بأن مايصفه ماثل أمامنا يكاد أن ينطق ...

ومن أطرف ما قاله في الوصف ، وصفه لثلاثة من فرسان المسلمين تقدموا لخطبة شقيقة زوجه ، فبعد انتهاء معركة القادسية تقدم أولئك الفرسان وهم: بكير ابن عبد الله الليثي ، وعتبة بن فرقد السلمي ، وسماك ابن خرشة الانصاري، لخطبة أروى ابنة عامر الهلالية. فسألت أروى شقيقتها زوجة القعقاع أن تستشير لها زوجها وقالت لها : استشيري زوجك أيهم يراه لنـا ، وحين استشارت زوجها قال لها : سأضعهم في الشعر فانظري لأختك وأنشد يقول :

إنكنت حاولت الدارهم فانكحي
سماكا أخا الأنصار أو ابن فرقد

وإن كنت حاولت الطعان فيممي
بكيرا إذا ماالخيل جالت عن الردى

وكلهـم في ذروة المجـد نـازل
فشأنكـم إن البيـان عن الغـد

الهوامش والمصادر :

(١) الحوص : الخياطـة .

(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٣ ص (٢٦٢) الناشر دار المعارف بمصر .

(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٣ ص (٣٤٧). الناشر دار المعارف بمصر .

(٤) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٣ ص (٣٦٥) . الناشر دار المعارف بمصر .

(٥) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٣ ص (٣٧٩) . الناشر دار المعارف بمصر .

(٦) معجم البلدان : لياقوت الحموي جـ٢ ص (٢٦٧). الناشر دار صادر بيروت .

(٧) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٣ ص (٣٩٨) . الناشر دار المعارف بمصر .

(٨) تاريخ مدينة دمشق : لابن عساكر . المجلدة الاولى ص (٥١٨) . الناشر المجمع العلمي العربي بدمشق .

(٩) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٣ ص (٥٤٣) .
الناشر دار المعارف بمصر .

(١٠) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٣ ص (٥٤٧)
الناشر دار المعارف بمصر .

(١١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٣ ص (٥٥١) .
الناشر دار المعارف بمصر .

(١٢) خام : نكص وجبن . قديس : اسم حصن في القادسية ، كان سعد يشرف منه على ارض المعركـة . حيث لـم يشترك سعد في المعركة . راجـع كتـاب القعقاع بن عمرو ، لكاتب المقالة .

(١٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٣ ص(٥٥٧) .

(١٤) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٣ص(٥٦٢) .
الناشر دار المعارف بمصر .

(١٥) القادسية : احمد عادل كمـال . ص (١٧٦) .
الناشر دار النفائس ــ بيروت .

(١٦) بهر سير : من نواحي سواد بغداد قرب المدائن .

(١٧) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٤ ص (٨) .
الناشر دار المعارف بمصر .

(١٨) تاريخ الرسل والملوك للطبري : جـ ٤ ص (١٢) .
الناشر دار المعارف بمصر .

(١٩) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ ٤ ص (٢٧) .
الناشر دار المعارف بمصر .

(٢٠) معجم البلدان . لياقوت الحموي جـ٢ ص(١٥٦)
الناشر دار صادر بيروت .

(٢١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٤ص (١٢٨) .
الناشر دار المعارف بمصر .

(٢٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٤ ص (١٣٣) .
الناشر دار المعارف بمصر .

(٢٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٤ ص(٣٣١) .
الناشر دار المعارف بمصر .

(٢٤) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٤ ص(٣٤٦) .
الناشر دار المعارف بمصر .

(٢٥) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٤ ص(٤٨٤) .
الناشر دار المعارف بمصر .

(٢٦) تاريخ الرسل والملوك : للطبري جـ٤ ص(٤٨٩) .
الناشر دار المعارف بمصر .

(٢٧) تاريخ والرسل الملوك :للطبري جـ٤ص(٥٣٢) .
الناشر دار المعارف بمصر .

(٢٨) ويقال لدى العناق . والعناق النجم الاوسط من بنات نعش الكبرى وهي توصف بالبعد والخفاء . يقصد انها في امتناعها وبعدها على الغزاة كانها عند العناق .

(٢٩) يقصد بالعتاق : عتاق الخيل

(٣٠) رقاق : الرقيقة . والمقصود انها سيوف رقيقة قاطعة الحد .

(٣١) البتر : المقصود بها السيوف .

(٣٢) الذواق : الابتلاء والتجربة .

(٣٣) معلماً : ذو علامة . تنحط نحط نحيطاً : زمر . والنحط صوت الخيل من الثقل والاعياء

(٣٤) الماقط : المضيق في الحرب .

(٣٥) الهبا : الغبار . او ما يشبه الدخان .

